الفلسفة الشرقية

تأليف الدكتور محمد غلاب

للاديب السيد احمد صقر

الدكتور محمد غلاب في طليعة رجالنا الممتازين الذين جمعوا بين الثقافة العربية، والثقافة الغربية؛ وتذوقوا ما جمعوا، وهضموا ما تذوقوا، وأنتجوا مما هضموا نتاجا شهياً يمتاز بالعمق، وجدة العرض، وغزارة المادة، ورشاقة الأسلوب. ويمتاز الدكتور غلاب من بين هؤلاء الأفذاذ بميله الشديد للفلسفة، ولعل لوظيفته في ذلك أكبر الأثر. فهو أستاذ الفلسفة في كلية أصول الدين إحدى كليات الأزهر. ولقد كان الأزهر إلى عهد غير بعيد يحرم الفلسفة ويقذف المشتغلين بها بالزندقة والمروق، أما اليوم فقد صارت الفلسفة بأنواعها تدرس فيه، ووجد من رجاله من يؤلف فيها كتباً قيمة كهذا الكتاب الذي ألفه الدكتور ليسد ثغرة كانت مفتوحة في الحياة العقلية المصرية؛ إذ أن ثقافتنا قد بلغت في العلوم الطبيعية شأواً يسمح لنا بالوقوف في صفوف الأمم الراقية، ولكنها في العلوم العقلية ليست شيئاً مذكوراً «فلا تزال مصر مقفرة في الفلسفة إقفاراً يندى له جبين الانسانية خجلا، ولا تزال معارفنا الفلسفية بالقياس إلى أوربا تعد جسما بلا روح، أو كائناً أعجم إلى جانب إنسان[1]» لذلك اعتزم الدكتور القيام بهذه المحاولة الخطيرة مسترشداً بنور الحق والواجب ففكر وقدر ثم نظر فألفى الشرق — وهو منبع الحكمة، ومصدر العرفان — مغموط الحق، مطمور المجد، مجحود العظمة، في هذه الناحية، فأراد أن يُصحر من مجده، ويظهر من حقه، ويجلو من عظمته بكتاب الفلسفة الشرقية والفلسفة الشرقية ليست كما يصورها (بارتلمي سانت هلير) عديمة النفع «لا تفيدنا دراستها إلا من جهة إرضاء النزعة في

(١) مقدمة الفلسفة الشرقية ص ٧

أتذكر قول القدماء من الشرقيين: إنه خير للبنت ألا تقرأ ولا تكتب؟ إن القديس توما يظهر هنا. وليس ما أبدي هنا أثر الوراثة فحسب، بل هو شيء أبعد من الوراثة. ما هو؟

قل لي أنت ما هو هذا؟ وقل لي ما إذا كنت على ضلال أو على هدى، فاني أثق بك وأصدق بالبداهة كل ما تقول. وسواء أكنت مخطئة أم غير مخطئة فان قلبي يسير اليك، وخير ما في يظل حائماً حواليك، يحرسك ويحنو عليك.

غابت الشمس وراء الأفق. ومن خلال السحب العجيبة والأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة، نجمة واحدة، هي الزهرة إلاهة الحب. أتري يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوقون؟ ربما وُجد فيها من هي مثلي، لها جبران واحد حلو بعيد بعيد، هو القريب القريب، تكتب اليه الآن والشفق يملأ الفضاء، وتعلم ان الظلام يخلف الشفق، وأن النور يتبع الظلام، وأن الليل سيخلف النهار، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذي تحبه، فتتسرب اليها كل وحشة الشفق، وكل وحشة الليل، فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسم واحد: جبران.

مصر، ١٥ يناير سنة ١٩٢٤

وحي بغداد

صديقنا الدكتور زكي مبارك من الشعراء المقلين القلال. وقد يفيض عليه الالهام في بعض أحواله فيطول نفسه ويتسع مداه. وقد نظم في هذه الأيام قصيدة عصماء بلغت أبياتها ١١١ بيت عنوانها (من جحيم الظلم في القاهرة، إلى سمير الوجد في بغداد). وقد تفضل فخص بها الرسالة، وسننشرها في العدد المقبل

الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها كثيراً، فليس علينا أن نسعد اليها لنعرف من نحن ومن أين جئنا[1] » بل هي جهة المنافع ، حرية بالبحث والتحليل . والواجب على من أراد دراسة الفلسفة أن يبدأ بها ليكون على بينة من العناصر الأساسية التي تكون منها الجسم المراد درسه من جهة ، ولكي يصل أوائل حلقات السلسلة العقلية بأواخرها من جهة ثانية[2] »

يقع هذا الكتاب في ٥٥٠ صفحة من القطع الكبير ، وهو مصدر بمقدمة اشتملت على مناهج البحث في العصر الحديث وعلى ما يجب أن يسلكه الفيلسوف في استعراض المذاهب الفلسفية، وما يجب أن يكون عليه من الصفات ، وما يجب أن يلاحظ من ترتيب الحوادث بعضها على بعض تبعا لقانون المنطق القويم حتى تكون نتائجه سليمة قويمة ، واشتملت فوق ذلك على بحث مشكلتين عويصتين طال فيهما لجاج العلماء . وهما : أصل الفلسفة وهل هي إغريقية مبتدعة أم شرقية متبعة ؛ وتسلسل الثقافات بعضها من بعض . أما الكتاب نفسه فقد عرض في تفصيل وتحليل دقيقين للفلسفات المصرية ، والهندية ، والفارسية ، والصينية ، والكلدانية والعبرانية ، فدرس في مصر الحياة العقلية منذ نشأتها ، وتعقب التفكير وتطوره في عصرها قبل التاريخ ، ثم في عصور: منفيس، ومدينة الشمس ، وطيبة ، فأبان بإسهاب التطورات التي تعاقبت على آراء المصريين في الألوهية ، والنفس والآخرة ، والسؤال والميزان ، والعقاب والثواب ، والأخلاق والآداب ، والفنون والعلوم . ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن الدكتور قال : عرف المصريون الضمير منذ أقدم عصورهم ، ووصفوه وصفا فلسفيا فقال فيه قائلهم : إن قلب الانسان هو إلهه الخاص، وإن قلبي قد رضي عن كل ما عملته وكل من رضي قلبه عن عمله التحق بمرتبة الآلهة »[3]

ثم انتقل الدكتور إلى الهند فتناول فيها أربعة عشر مذهبا بين دينى وفلسفي بتحليل ونقد لو أننا حاولنا تعقبهما لطال بنا الكلام ولكننا نكتفي بالاشارة إلى مدارسة « ساسكيها » التي وجد فيها المنطق قبل أن يوجد أرسطو بأمد بعيد ، ولم يذر الحديث عن الهند حتى قرر « أن الفلسفة بجميع أقسامها قد أزهرت فيها إزهارا فائقا، وأن اليونان مدينة لتلك البلاد بكثير من نظرياتها التي يعتقد السطحيون أنها مبتدعة» وحسبك أن تعلم أنهم « وصلوا إلى نظرية الذر أو الجوهر الفرد قبل « ديموقريت » و « لوسيب » وأنهم أساتذه « فيثاغورث » أكبر رياضي اليونان على الأطلاق »[1]

وبعد أن فرغ من الهند انتقل إلى الكلام عن الفرس . فدرس الديانات القديمة ومذاهب « زرادشت » و « ماني » و «مزدك» دراسة وافية ممتعة . ثم عرج على الصين فتناول عصر ما قبل التاريخ . ثم العصر المنهجي ، حيث درس في عمق مذاهب : «لاهو — تسيه» و « كونفيشيوس» و «مانسيوس» والمدرسة السوفسطائية والمنطق في الفلسفة الصينية إلى غير ذلك من المباحث القيمة . ثم عرض بما يشبه ذلك إلى الفلسفتين : الكلدانية والعبرية ، وبالأخيرة ينتهي الكتاب

ولا إخالني بحاجة إلى أن أقول إن الدكتور أجاد العرض وأحسن القول فقرب الفلسفة إلى الناس، بعد طول تفوروشماس، فذلك معروف له من الفصول التي نشرتها الرسالة من الكتاب قبل ظهوره . بيد أني بحاجة إلى أن أقول كلمة صغيرة لا أجد مناصاً من قولها الخاص) كما يسميه ذلك القديم :

ذهب الدكتور إلى أنه هو الذي أثبت بالأدلة القاطعة « سذاجة أرسطو وأذنابه في دعواهم أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى في « إيونيا » في القرن السادس قبل المسيح ، وأن أول فيلسوف في الدنيا هو (تاليس الملتي[2]) والحق أن هذا الاثبات قديم الميلاد ، وليس أدل على ذلك مما قاله الدكتور عن « ديوجين لا إرس » أنه أثبت في كتابه (حياة الفلاسفة) : أن الشرق قد سبق الغرب في النظر العقلي وأنه كان أستاذه وملهمه[3] » وقد عاش هذا المؤرخ الأغريقي في القرن الثالث قبل المسيح .

وبعد فهذه كلمة عابرة أردنا بها التعريف بهذا الكتاب العظيم الذي سيكون — إن شاء الله — عظيم الأثر في حياتنا العقلية عامة ، وفي نهضتنا الفلسفية خاصة .

السيد احمد صقر

(١) مقدمة الكون والفساد لأرسطو ترجمة الأستاذ احمد لطفي السيد باشا
(٢) الفلسفة الشرقية ص ١٧
(٣) المصدر السابق ص ٧٨

(١) المصدر نفسه ص١٧٨ وما بعدها
(٢) ص ٣٤٤ (٣) ص ١٤

ابتا المرضى بالبول السكري بنيكوفان